اشبيلية ....اميرة الاندلس و حكاية المئذنة التي تربعت على سطح اكبر كنيسة كاثوليكية

بقلم اسيا العتروس

قد يحلو للبعض ان يسميها "عروس الاندلس" فيما يسميها البعض الاخر" اميرة الاندلس"او كذلك "تاج الشرف "و هي كلها اسماء ارتبطت بالعاصمة الاندلسية اشبيلية على مدى قرون مضت و قد تحولت بفعل الحضارات و الشعوب المتعاقبة عليها الى متحف مفتوح يدعو زائرها الى استكشاف ما بين اروقته من معالم و اثار و كنوزاو موسوعة فسيفسائية تدعوه الى طي صفحاتها و التقليب بين صورها وكلماتها او كذلك لوحة فنية تغريك باستطلاع جزء من اسرارها الدفينة التي تجلب الاف الزائرين المتوافدين اليها من كل انحاء العالم ... و لعل اطرف ما يمكن ان يلمسه زائر اشبيلية ايا كانت هويته او موطنه سيجد ان المدينة ليست غريبة عنه و انه و قبل حتى ان تاخذه قدماه الى ابرز المعالم الاثرية فيها و قبل ان يغوص بين احيائها و ازقتها الضيقة و اسواقها بل و قبل ان يسمح لنفسه بالانسياق وراء الموسيقى الاندلسية المنبثقة من المقاهي و المطاعم او شرفات المنازل سيعتريه و للوهلة الاولى احساس بان ذاكرته تختزن الكثير من تلك المعالم و الصور التي ينتشرمثلها في اكثر من مدينة عربية او اوروبية من سيدي بوسعيد الى دمشق ا اسطمبول و من مالطا الى اثينا ...

و بعيدا عن الوقوع في نقل ما تقدمه بعض المطويات السياحية عن اشبيلية و خصوصياتها فانه و الى جانب ما تعرضه المدينة من بناء معماري جمع بين اصالة الطابع الاندلسي الاسلامي في نقوشه و رسومه و مزهرياته و اعمدته و اقواسه و ساحاته و بين هندسة عصر النهضة المعتمدة في مختلف الكاتدرائيات و الكنائس التي حلت محل الكنائس و المساجد الكثيرة فيها و التي لا يكاد يخلو منها شارع او حي فان اكثر ما يمكن ان يثير الاهتمام و الاستغراب في ان واحد هو مشهد كنيسة "لا جيرالدا" اما الاثارة فسببها ذلك العلو الشامخ لاحدى اكبر المآذن المتبقية في اشبيلية و التي كانت ذات يوم مئذنة المسجد الجامع الذي بناه الموحدون سنة 1184 اما الغرابة فتكمن في ذلك التعانق الذي قد يبدو في نظر البعض غير متجانس بين المئذنة رمز الدين الاسلامي و بين احدى اكبرالكاتدرائيات في اوروبا و كانها تكذب ما يروج عن حرب الاديان و الحضارات التي باتت تسيطر على كل الخطابات و ترفض الانسياق لم ينشر حول صراع حتمي بين الشرق و الغرب حيث تبدو الكنيسة في شكلها العملاق و قد تربعت على سطحها مئذنة شامخة في عليائها تجتذب الانظار و تعيد للاذهان الحظارات المتعاقبة على المدينة اما في الليل فان الاضواء تمنح المئذنة حضورا مهيبا يعكس حجم الانجازات الاسلامية في الاندلس طول سبع قرون قبل ان يمتد الى صفوفهم الضعف و الامتهان و الصراعات و الاقتتال الداخلي بعد ان غرقوا في الترف و الفساد لينتهي بهم الامر الى السقوط و الاندثار و البكاء على الاطلال .

قد يدعوك فضول لا تستطيع مقاومته لزيارة هذا المعلم و في نفسك بعض رغبة في الوقوف على جزء اساسي من تراث اشبيلية الذي خلفه المسلمون هناك طوال سبعة قرون من تواجدهم في اسبانيا لتجد ان ايدي الفنانيين و المهندسين و الرسامين الاسبان قد عملوا و على مدى سبعين عاما على طمس تلك المعالم و الغائها اواعادة صياغة خصوصياتها الفنية لتكتسب خصوصيات الفن الغوطي المسيحي حتى لم يبقى من تلك المعالم غير النزر القليل و منها المئذنة التي تحولت الى برج للاجراس للكنيسة اطلق عليها "لاجيرالدا" و كانت المئذنة بنيت بامر من السلطان ابو يوسف يعقوب المنصور الموحدي ليتحول المسجد بدوره الى كاتدرائية لا تزال اليوم رمز اشبيلية و احد اكبر و اهم مقاصد الزائرين و يقال انه عندما تم بنائها كانت تبدو للناظرين لى بعد اربعين كيلومترا و قد ظلت "لاجيرالدا" حتى وقت قريب اعجوبة هندسية و احد اعلى البناءات في العالم .و تشير المعلومات الى ان المهندس المعماري احمد بن باصو بدا بناء المئذنة و اتمها ابو ليث الصقلي سنة 1198 و هي واحدة من الاخوات الثلاثة لمئذنتين مماثلتين في الرباط و اخرى في مراكش من تصميم نفس المهندس و يبلغ ارتفاع مئذنة المسجد الجامع باشبيلية ا نحو ست و تسعين مترا و قد اقيمت على انقاض مباني فينيقية و رومانية قديمة كثيرة و هو ما ينعكس اليوم في شكل البرج الذي يحمل تاثيرات مختلف الحضارات المتعاقبة على المدينة و قد كانت محاطة باربع كرات ذهبية يرجح انها اختفت خلال احد الزلازل المدمرة و لعل ما يؤكد مكانة المئذنة لدى

مسلمي الاندلس انه و بعد سقوط المدينة اثر الحصار الذي فرضه عليها الملك فرديناند الثالث على مدى سنة و خمسة اشهر ان المسلمين ارادوا هدمها الا ان الملك الاسباني هدد بقطع راس من يجرا على ازالة حجر واحد منها و يبدو ان الاسبان كانوا يريدون هدم المئذنة بانفسهم و لكن عظمتها منعتهم من ذلك فكان اول ما قام به بعد فرديناند بعد سقوط المدينة ان صعد الى المئذنة معلنا تحويلها الى ناقوس كنسي و لعل ما يميز المئذنة عن غيرها ان الوصول اليها لم يكن عبر المدارج بل عن طريق اربع و ثلاثون طابقا تصاعديا في شكل منحدرات و كان المؤذن يصعد اليها على ظهر الحصان خمس مرات في اليوم و مع ان الوصول الى المئذنة ليس بالامر الهين فانك اذا ما نجحت في الوصل الى غايتك ستجد في انتظارك مكافاة جديرة بالجهد الذي ستبذله لانك و بكل بساطة سيكون بامكانك ان تمتع ناظريك بجمال اشبيلية و ان تتامل من اعلى نقطة فيها جمال حديقة البرتقال التي لاتزال ثابتة كما كان الحال عند بناء المسجد قبل سبعة قرون الى جانب النافورة التي كانت معدة للوضوء و قد جفت مياهها و ستكتشف من اعلى المئذنة روعة نهر الوادي الكبير المتصل بالمحيط الاطلسي الذي يشق المدينة و الذي يظاهي في عظمته و حسنه دجلة لفرات و النيل حيث تسير فيه قوارب النزهة تحت ظلال الثمار على طول اربع و عشرين ميلا . و الى جانب ما تحتويه الكنيسة اليوم من لوحات فنية و كنوز فقد كانت تستخدم لتجميع الذهب المستقدم من مناجم امريكا كما انها تاوي رفاة كرستوف كولومبوس .و تحمل المئذنة اليوم اسم "لاجيرالدا "حيث قام المعماري هرنان رويز بتصميم برج الناقوس و على راسه تمثال يعبر عن العقيدة ليحول المنارة الى برج للاجراس و قد وضع تمثال على قمة الجيرالدا في القرن السادس عشر في شكل تمثال متحرك وفق اتجاهات الريح لامراة تحمل درعا و من هنا جائت تسميتها "جيرالدينو"او الدوارة , لم يكن المسجد الجامع او لاجيرالدا الاثر الاسلامي الوحيد المتبقي في المدينة حيث لا يزال مسجد عمر بن عبديس بدوره قائما و قد تحول هو الاخر الى كنيسة السلفادورو برج الذهب الذي تحول الى متحف حربي ...قد يتبادر الى ذهنك و انت تنهي جولة مشوقة بين اروقة لا جيرالدا بعض ما اقترن من احداث عن خاتمة وجود المسلمين في الاندلس قبل سبعة قرون عندما اجبر المسلمون على الرحيل و قد قتل منهم الكثير و قتل الكثير فيما اضطرت اغلبية لاخفاء اسلامها و غادر الكثيرون الى شمال افريقيا و قد حملوا معهم مفاتيح بيوتهم على امل العودة اليها يوما الا ان تلك الاحداث سرعان ما تزول و ان تغادر المكان ليقع نظرك على البوابة الخلفية للكنيسة و قد نقشت عليها بطريقة هندسية رائعة وباحرف عربية متداخلة عبارة "الملك لله "التي تتكرر على كامل مساحته في شكل قد لا يجيد الكثير من الزوار قرائته على البوابة التي لم تتغير ... اشبيلية هي كل هذه الصور و غيرها ايضا" من الحدائق المعلقة " و المزهريات في مختلف شرفات المنازل و المباني الرسمية واشجار البرتقال الممتدة على مختلف الشوارع و الطرقات تظلل المقاهي و المطاعم او غيرها و هي ايضا في مختلف تلك الرسوم و النقوش على ابواب المدراس و الجامعات كتلك التي تميز معهد الفنون و لا شك ان هذه المعطيات وغيرها الى جانب ما منحته الطبيعة لهذه الارض من خصوبة الحقول و الرياض ما ساهم في جانب كبير منه في تهذيب الذوق العربي و افساح المجال للكتاب و الشعراء العرب لاطلاق العنان للخيال و ينقلوا الى بلاد الاندلس الكثير من معالم الحضارة الاسلامية و انشاوا معاهد العلوم في قرطبة و اشبيلية و مرسية و غيرها و اذا كانت اسطورة اشبيلية قد اقترنت في احيان كثيرة لدى الغرب باسطورة هرقل العظيم فانها قد اقترنت في الذاكرة العربية بالعقد الفريد و باشعار ابن زيدون وولادة و يبقى من اعلام اشبيلية ابن رشد الفقيه و ابن العربي و القاضي عياض بن موسى و ابوبكر بن خير و من الشعراء ابن حمديس و المعتمد ابن عباد و ابن هاني و ابن قزمان و غيرهم ....